# ذكريات البداية

# لصلاح الحال والنهاية

د. محمد مهدي علي الحمودي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

ذكريات

# ذكريات البداية لصلاح الحال والنهاية

إعداد

د. محمد بن مهدي الحمودي

1437 هـ 2016م

## المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ الأحزاب: ٧٠: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد .. وبعد.

لكل عمل بداية ولكل بداية ذكريات، سلم الحياة يبدأ بسلوك أول درجة فيه، يتذكر القادة والزعماء بداياتهم، ويتذكر التجار خطواتهم الأولى، ويستشعر الفقير مرارة البداية وغصة الحال.

ولا ينسى الداعية إلى الله تعالى حلاوة أول جرعة إيمان تذوقها، وأول عمل للدين قام به، ولا أول مرشد قابله، ولا أول موجه نصح له، ولا أول شيخ ثنى ركبتيه بين يديه.

ذكريات فؤاد، وتلاوة لسان، وحركات يد، وخطوات قدم، كلها تبقى محفورة في الذكريات التي لا تُعرِّيها سنوات العمر ولا أعباء الحياة.

يكتب الناس ذكرياتهم لتبقى أشخاصهم، ويكتب آخرون لتعيش مبادؤهم، ويكتب آخرون تذكيرا للناسي وتنبيها للشارد وتبصرة للوارد.

وأكتب هنا ليبقى المبدأ، وأذكر أشخاصا ليعلموا مكانتهم لدى واحد تأثر بدعوتهم واستنار بنور إرشادهم واستقام حاله بعبارات نصحهم.

فيُعْلَمُ في الحي حقه ومكانته، ويترحم على الميت ما دام ذكره طيبا وتراثه نظيفا وتركته مباركة، وليعلم الحي منهم أنه إنما ذُكر وشُكر ببركة ما قدم، فيزداد بذلك شكرا لربه، وتقوى في سبيل ذلك حركته ودأبه.

صور أراها في واقعنا، وأخبار عن صِلاة دعاتنا وحبال مودتهم، بعض تلك الصور زاد بريق لمعانه وصفائه بزيادة عمرها ومرور أيامها وتسارع الأحداث عليها وتغير هبوب رياح الواقع الحادث.

وصور أخرى أثر الزمن في لمعانها وغير شيئا من بريق صفائها، وكدر الواقع المعاش عَذْب ماضيها وحول تلك الجداول التي روّت عطش السائرين، فهي اليوم صحراء مقفرة، أو حبيسٌ ماؤها لا يجري فيُستقى، ولا يعرف صافيه فينتقى.

صِلات وعلاقات لم تزدها حرارة واقع متغير إلا رسوخا وثباتا، تمضي السنون فتصيب الأجسام بالنحول، لكن حبال تلك الصِلات تشتد، تحولت حبال قوة الجسد إلى حبال قوة العلاقة والأخوة، فبقدر ما كان النقص طينيا كانت الزيادة روحية.

تقول سليمى ما لجسمك شاحباً

كأنك يحميك الطعام طبيب

فقلت ولم أعِيَ الجواب ولم ألح

وللدهر في صم السلام نصيب

تتابع أحداث تخرمن إخوتي

فشيبن رأسي والخطوب تشيب

فلو كانت الدنيا تباع اشتريته

بما لم تكن عنه النفوس تطيب

بعيني أو إحدى يدي وقيل لي

هو الغانم الجذلان حين يؤوب

أخ كان يكفيني وكان يعينني

على نائبات الدهر حين تنوب

**واقعنا قبل دعوتنا**

لم تكن قريتي ولا منطقتي بمعزل عن ثقافة وواقع سائر قرى البلاد، وأسرتي وعشيرتي وقبيلتي تأثرت بثقافات من جاورها، واقع نعرفه ونعترف به ليعرف حادينا أين يجب أن يوجه مطايانا، وليعرف واردنا من أي دلو يجب أن يغترف لنا ويسقينا، يذكر من عاصره ويُعرِّف جيلا أتى بعده.

واقع يُبرز بوضوح جهود رجال ساروا في ظلمة الليالي وسبحوا عكس تيار كاد أن يجرف القيم والعقائد، عبارات ذم وقدح نالت ذواتهم، وتشويه لمبادئهم، فصبروا وصابروا واستعانوا وتعاونوا فَكَبُر ضوء مصابيحهم فاستنار به جيل، وكان دليلا يُعرف به سبيل المتقين.

**في العقيدة والتوحيد:** قبور يقصدها قومي لدفع ضر ونيل خير، قباب ضخمة علت تلك القبور، يأكل الناس ترابها، ويتمسحون بحجارها، يأتيها العقيم لتهب له الولد، وتقصده الحامل ليتم حملها، ويغتسل الناس ببرك الوحل بجوارها لرفع مرض وبركة تنال، إن ضاعت واحدة من غنمي قصدت القبر ببخور ليردها عليّ، هكذا رأيت الكبار يصنعون فحاكيت صنيعهم، يصنعون لها أكلا بغير ملح، فيكون طعاما لبقر حارس القبر وسادنه.

علا شأن السحرة والمشعوذين، فقصدهم الناس كل يريد قضاء مأربه، منهم صاحب بلاء يريد رفعه، ومنهم صاحب عداوة يريد الانتقام من خصمه، ومنهم يريد أن يسخر زوجه وولده ليتبعه ويصير خادمه وعبده.

كنت رسول أهلي إلى ذلك المشعوذ الذي كان يعطيني أوراقا لوضع واحدة منها في ماء ليشربه المريض وأخرى يتبخر بها عند غروب الشمس وثالثة عند طلوعها، ورابعة تعلق في صدره ونحره.

وكان يؤلمني أخذه للنقود من غير أن يعطيني منها ولو ريالا لأشتري به من الدكان حلوى، خصوصا وأن دكان البلد على طريقي، فقلت يوما في نفسي وما عسى هذا الساحر أن يصنع!! إنه يكتب أوراقا وحسب، فاشتريت دواة وقلما يشبه خط قلمه وورقا تقارب ورقه، فكنت أكتب أحرفا لا تفهم وكلمات ليس لها معنى، وأحذرهم في فتحها وقراءتها، وحظيت بعدها بالمال الذي يأخذه، حتى كشف الوالد لعبتي بعد سنة، عندما قابل ذلك الساحر في السوق.

استعان الظلمة بالسحرة لإرهاب الناس وترويعهم لينقادوا لهم، فكان الظلم والقهر والشرك شركاء في ظلم الناس وقهرهم وأخذ ما يتعبون لتحصليه من زرعهم وماشيتهم.

وسار في سلك هذا الاحتيال وأخذ ما بأيدي الناس من مال أناس نسبوا أنفسهم للصوفية، واخترعوا مواسم ومناسبات يتجمعون فيها يقولون للذكر، فلا تسل عن ما يرافق ذلك من خرافات وخزعبلات وإرهاق لصاحب تلك المناسبة ماديا.

**في العبادات:** شعائر الدين الظاهرة كانت من الخصال المرتبطة بكبير السن غالبا، فالذي يحافظ على الصلاة والصيام والقرآن هم الشيب الكبار، أما الشباب فليسوا في هذا السلك، وإن كان فيهم من هو محافظ على هذا تقليدا لواقعه ومحاكاة للكبير، وأداء الكبار للعبادات يشوبه تقصير وإضافة وتحريف، بسبب الجهل والتجهيل.

**وفي العادات الاجتماعية:** ترى التبرج والاختلاط ومصافحة غير المحارم، وكانت العباءة مختصة بالذهاب للمدينة وحسب، وظلم الناس بعضهم لبعض، وتسلط الأقوياء على الضعفاء، واقتصار العلم والتعليم على عوائل وقبائل دون غيرها.

***

**شعاع النور في ظهور** ووسط ذلك الركام من خرافات العقائد وتفاهات الأخلاق يظهر صوت مغاير وسلوك مضاد، إنه أخي الكبير (عبد الله) ومعه اثنان آخران.

الولي لا ينفع ولا يضر، والنذر والتبخير لا يجوز، والسحر من كبائر الذنوب، والاختلاط والسفور يخالف الشرع، والموالد وأكل أموال الناس بالباطل كل هذا حرام، كلام صادم للمجتمع وجديد على الثقافة، عندها تحرك الجهل وأرباب المصالح، وأصبح نشيدهم في المجالس احذروا هؤلاء فقد اتوا بدين جديد، ورغم هذا كله استمر النور يشع ومصباح الخير يزيد ضوؤه.

أعجبني هذا الكلام وأثر فيَّ كونه يتوافق مع الفطرة السليمة والعقل الصحيح وقبل ذلك كله فهو الدين الصحيح.

ضيف ومحاضرة وسط ظلام الليل وهدوء القرى أرى أناسا بمصابيحهم يخرقون ذلك الهدوء بحديثهم،، ترى أين مسيرهم وفي أي مكان يجتمعون؟ إنهم يستجيبون لنداء الدعوة لمحاضرة دينية في قرية ( المحجر) سليقيها واحد من قدماء من حملوا مشاعل النور ( الشيخ علي القاسمي) لا يزال عنوان تلك المحاضرة حاضرا في الذاكرة ( وقفات مع سورة العصر) لا أتذكر شيئا مما قاله لحداثة سني ولجديد ما يقال، فلم نكن نألف إلا كلاما مسجوعا في خطبة الجمعة من خطب ابن نباتة رحمه الله.

بدأت رحلاتي مع أخي (عبد الله) ومن معه إلى مدينة إب تتكرر ورحلاتهم تزيد، وبدأ طرحه يتكرر على مسامعي، يعود ومعه بعض أشرطة المحاضرات وكتب التوحيد، وربما أسعفه الوقت والزمن ليعقد لنا جلسة قراءة للقرآن الكريم.

ولا تزال ذكريات تلك الجلسات حاضرة، و نور بركتها يضيء لي طريق السير حتى اللحظة، لا تزال لساني منطلقة بتلك الآيات التي قرأتها وأخي يصحح لي، أقرأني من سورة التحريم فاستعجم لساني عند قوله تعالى ﴿ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ وما زال يكررها علي حتى انطلق لساني بها.

تاقت نفسي لمصاحبته في رحلته تلك إلى المدينة ومعرفة أولئك الأشخاص الذين ينقل عنهم ويعمل معهم، فقد كانت العادة ألا يذهب إلى المدينة إلا من له فيها حاجة وليس للصغار مثلي حاجة لزيارة المدينة، ففي القرية نعيش ونعمل وندرس، والتسوق وإحضار ما يحتاجه البيت وظيفة الكبار.

وجاءت لحظة الصحبة ومرافقة دعاة النور وجاء ذلك اليوم النير الجميل الذي لا ينسى، بعد الظهر تحرك حملة النور يسيرون في سرور وفرح وأنس وبهجة، بدأ هطول المطر، والجميع يسير تحت رشاته وكأنه يغسل ظواهرهم ويزرع الثبات في قلوبهم وأرواحهم، بدأت السيول تسير في جداولها والجميع يشد في سيره ليسبق تلك السيول حتى لا تقطع عليهم طريق الوصول، ربما تدحرج البعض في طريقه وأصاب البعض شوك الأشجار المتناثر في الطرقات، لكن كل ذلك لا يوقف السير ولا يوهن العزائم.

يصل الجمع قبل صلاة المغرب إلى مدينة إب يسيرون نحو مقر المحاضرة، إنه جامع الغفران، منارة النور ومصدره الأول.

أذن المؤذن لصلاة المغرب، أقيمت الصلاة، تقدم للصلاة رجل لم أكن التقيته ولا سمعت صوته ولا قراءته، بدأ الصلاة بدأ في القراءة، انفجر بالبكاء، ضجّ المسجد كله باكيا، يا الله ما هذا البكاء؟ ما هذا الخشوع؟ ما هذه الدموع؟، قلوب رقت واشتاقت وامتلأت خوفا ورجاءً ومحبة ففاض ماؤها من ينابيعه فليست العيون إلا علامة على وجود ذلك في القلب.

بعد الصلاة بدأت المحاضرة والتي قدمنا لسماعها فقد كانت محاضرة أسبوعية، بدأ الشيخ محاضرته، أول محاضرة سمعتها للشيخ المربي محمد بن محمد المهدي، لا تزال رنات الصوت وصداه في اذناي مدويا، لا يزال وقع الحديث الذي قرأه بنغمة قصيمية وصوت شجي في القلب حتى الساعة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كبر في الصلاة سكت هنية قبل أن يقرأ فقلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي أرأيت

سكوتك بين التكبير والقراءة ما تقول قال أقول اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد. رواه مسلم.

لا تسل عن دموع هطلت وأصوات بالبكاء ارتفعت، لا تسل عن تلك الروحانية التي حلت المكان، لا تسل عن الروح التي بلغ شوقها وحبها لحبيبها محمد صلى الله عليه وسلم وهي تسمع فداء أبي هريرة لحبيبه وقرة عينه، ولا تسل عن شغف الروح وسعيها لتطهير ما علق بها من ذنوب وخطايا.

انتهت المحاضرة أقيمت صلاة العشاء بروح مقبلة وأعين دامعة وأصوات باكية لإمام الصلاة وشيخ الدعوة، ومن خلفه ثلة من شاب النور وقناديل الخير ومصابيح التوحيد.

دعني أسمي لك بعضا من تلك الوجوه القادمة من قراها وأخرى من أهل المدينة، وجوه منبسطة مسرورة، لأجل الله التقت، ولراية التوحيد حملت، ولهمِّ تبليغ الرسالة خططت وبذلت وكدحت.

اسماء سلام عليها ما حيت وسلام عليها يوم تبعث ( الشيخ/ محمد المهدي، عبد الله مهدي الحمودي، عبد الناصر الصانع، عبد الكريم النائب، فيصل البعداني، أحمد القاضي، فيصل الوصابي، محمد الزهيري) هناك وجوه حضرت لكن هذه وجوه أذكر حضورها حتى الساعة.

انتهت المحاضرة وتقابلت تلك الوجوه النيرة، عانق بعضهم بعضا عناق المحبين المشتاقين، محبة لله ومن أجل الله، الدين همها والتوحيد شعارها، وإخوة الإسلام والإيمان سر تجمعها واجتماعها.

سارع بعضهم بدعوة بعض للعشاء، ثم تدافعوا بعده زحاما للمحاسب أيهم يدفع أولا، رغم الامكانيات المادية المتواضعة لجميعهم، لكن أخوة الدين والإيمان تصنع جيلا هذه صفته ووسمه ورسمه.

تتابعت رحلات الدعوة والدعاة، وكبر ضياء الخير والتوحيد رويدا رويدا في المدن والبوادي، وضمت القافلة في كل محطة تسير بها مكانا وزمنا شبابا ورجالا صفى أمامهم جو الحقيقة وانجلى عن بصائرهم ظلام التشويه والشبه.

***

في رحلة الغربة والاغتراب عن الوطن التي يعشقها اليمني لحاجة ولغير حاجة، جموع من شباب اليمن اغتربوا ليتحولوا من طلاب مدارس ومعاهد إلى عمال بناء ومطاعم، وكنت واحدا من الراحلين، غادرت تلك البيئة وأولئك العلماء والدعة وتلك الوجوه المباركة.

يسير الزمن وتمضي الأحداث لأعود بقدر الله إلى أرض الوطن، رافقت أخي (عبد الله) مجددا لأسمع محاضرة بجامع الغفران، هو ذاك الشيخ الذي سمعته أول مرة هو ذاك المحاضر اليوم، سلمت عليه، سألني عن حالي وغربتي وقراري بعد رجوعي، كان القرار مواصلة عملي في مهنة إصلاح السيارات التي تعلمتها من غربتي أو ما يناسب الحال والإمكانيات.

أبى الشيخ ذلك القرار وعارض تلك الرغبة، وما زال ينصح ويقنع، حتى وافقتُه الرغبة وشاركتُه القرار، التوجه إلى مركز معبر لطلب العلم ودراسته، وحتى يقطع عني هاجس التخوف، ونقض القرار بالتراجع وعدني بعد يومين ليأخذني بنفسه ويرافقني بشخصه.

سأحتاج أن أذكر لك تفاصيل الرحلة، لتعلم الحزم والعزم، ولتعرف حقيقة البذل والتفاني، صفات هذا الشيخ لا ينكرها من خبرها منه ومن لزمه.

هذه تفاصيل الرحلة، تعرف على موكبها ومركبها.

لقيت الشيخ المبارك، توجهنا إلى مكان تجمع سيارات الأجرة (الفرزة) وجد الشيخ سيارة أجرة (بيجو) ولجعل الرحلة تبدو في غاية الرفاهية والراحة!! فقد اتفق الشيخ مع السائق أن نكون في المعقد الأمامي، وألا يستعمل المسجل بالأغاني وأن يمتنع عن التدخين.

أظنك أيها المبارك قد أدركت أمورا عن موكب الرحلة ومركبها!! لم يكن للشيخ مرافق، ولم تكن له سيارة خاصة تريحه عن همِّ الشروط التي يقنع بها السائقين، وتعطيه خيار السماع بآلة التسجيل ما ينفع.

ترى أيها المبارك ما الهمّ الذي حركه؟ وما المصلحة التي يرجوها مني؟ وهو يقنعني ويرافقني ويحرص على إيصالي لمكان الطلب (دار الحديث بمعبر).

تحرك السائق بسيارته، يحاول أحيانا تشغيل الأغاني، والشيخ يذكره الشرط فيعود إلى رشده ويوقف المسجل.

***

وصلنا مدينة معبر أستقبلنا الشيخ المبارك محمد الإمام ورحب بالشيخ المهدي، وتحادثا حول الدعوة والعلم، بعد الصلاة قدم الشيخ الإمام لطلابه الشيخ المهدي معرفا به وطالبا منه إلقاء كلمة لطلاب العلم في دار الحديث بمعبر، فألقى الشيخ كلمته، وقبل ختمها سأل أحد الطلاب الشيخ المهدي بالله إلا قرأ عليهم القرآن، فاستجاب الشيخ للطلب وقرأ آخر سورة الأحزاب.

أنهى الشيخ مهمته وسلمني للشيخ الإمام أوصاه بي خيرا وغادر دار الحديث بمعبر، أكرمني الشيخ الإمام وأمر لي بسكن كبار الزوار (المكتبة) فكان لا يسكن فيها إلا الكبار.

وفي صباح أول يوم في دار الحديث بمعبر صلينا الفجر واستمعنا درس التمرين على الخطابة الذي كان يقوم به الشيخ الإمام إعدادا للطلاب ليكونوا قادرين على الخطبة والمحاضرة.

بعدها دعينا للفطور، وكان فطورا من نوع لم نألف في البلد مثله (عصيد) فقلت لنفسي هذا من أول يوم، فجلست حول المائدة مع الطلاب حياء من أن أغادر السفرة، وغير قادر على الأكل الذي لم أعتد مثله في هذا الوقت.

وإذا بالشيخ الإمام يدور على الحلقات وينادي أين الضيف؟ أين الضيف الذي جاء البارحة؟ فلم أجب لظني أنه لا يقصدني، كنت أظن أنه يقصد أحدا من شيوخ العلم الكبار، أو شخصا مهما.

فرآني في الحلقة فأمسك بيدي وقال لماذا لا تجيب؟ فقلت ظننت أنك لا تقصدني، فأخذني إلى بيته، واعتذر عن وجبة الفطور، وأن هذه الوجبة جاءت نتيجة طارئ الأزمة التي كانت تعصف باليمن بعد حرب ما يسمى بحرب الخليج الأولى، وطلب لي فطورا آخر من المطعم.

سمع مني بعض أخباري، وسألني عن اسمي فأخبرته (محمد مهدي الحمودي) فقال إذا أنت محمد المهدي (حقي) لأن الذي جاء بك هو محمد المهدي، أصبحت أدعى في معبر ب محمد المهدي.

***

بدأت مرحلة الطلب، تنازعني رغبات الحياة أحيانا، ويثبطني عدم فهم ما أسمع أحيانا أخرى، فأنا أرى طلابا أقل مني سنا يجيبون عن أسئلة يلقيها عليهم الشيخ، ويناقشونه في أمور أخرى.

وجهني الشيخ لحفظ القرآن، بدأت الحفظ، وكنت أنطلق مرة وأكسل أخرى، قررت قرارا حاسما، وذهبت لمناقشة الشيخ الإمام فيه، شيخي المبارك، أنا لا أصلح لطلب العلم.

ابتسم الشيخ وأقبل عليَّ بكليته، ولماذا لا تصلح لطلب العلم؟ كان جوابي، قد مكثت هنا شهرين ولم أتمكن إلا من حفظ ثلاثة أجزاء من القرآن فقط، وأجدها غير راسخة ولا متقنة، فلا أريد شغل حيز في الدار يمكن أن يكون فيه من هو أنفع.

ضرب الشيخ على كتفي وقال بل تصلح إن شاء الله، من الغد سأكون أنا من يسمع لك القرآن ويقرؤك، وتحضر معي درس التحفة السنية شرح الأجرومية.

شدني ذلك وزاد من العزم والتصميم في الحفظ، كيف لا؟ والشيخ نفسه هو من سيسمع لي، ويدرسني، بدأ حضوري معه، يشجعني ويصبر على تفهيمي، ويقول عبارته الشهيرة لي بعد كل تسميع ودرس (أعانك الله .. أعانك الله .. أعانك الله).

وجاء العون من الله، وبدأ الفتح، وتجدد العزم، وقويت الرغبة، وانطلقت مع إخوة لي وزملاء.

***

أيها المبارك كانت تلك مقدمة وتمهيدا لما أريد تسطيره من وقفات الوفاء لحملة مشاعل النور، وقفات تهيِّج ذكريات الماضي لتبث فينا الروح من جديد، فنصلح بها خللا مضى، وتكون ريحا تحمل غيثا طهورا تغسل غبارا تراكم وأعتم رؤانا عن بعض قضايانا.

نريد لهممنا أن تنتفض من جديد .. نريد تيارا قويا صاعقا يسري في دواخلنا فيحرق صدى الخمول والكسل وسوء الظن والأثرة والتعلق بالدنيا .. نريد حبلا غليظا نشد به عرى علاقاتنا وأخوتنا لتصبح عصية النكث صعبة الانكسار .. نريد جيلا مبدعا يأخذ من قبسات نور الكبار لتكون له بداية اشتعال وإيقاد قدرات وطاقات .. نريد شيوخا يعقدون ألوية لشباب ويرسمون لهم أهدافا ويتركوا تفاصيل السير وخطوات المسير لهم فلعلهم أقدر وأقوى وأحكم .. نريد وضع الطاقات وتوظيف القدرات كل فيما يحسن ويقدر.

***

**الوقفة الأولى: اعرف نعمة ما أقامك الله فيه**

خذ هذه القصة لتكون لك مدخلا لتعرف ما منَّ الله عليك به، ولتعلم أي مقام أقامك الله فيه، ولو كان للخلق في ذلك قدرة وإرادة لحالوا بينك وبين ما وجهت إليه.

بعد ما من الله عليَّ به من العلم اليسير، وأعطاني قدرة في مخاطبة الناس ووعظهم وتذكيرهم، خرجت في قوافل الدعوة، التي تخرج إلى القرى والبوادي، وصلت قرية من قرى ناحية حبيش (حضار) أُعلن عن المحاضرة، جاء وقت صلاة المغرب، تقدم إمام المسجد وفقيه البلد بلا منازع له هناك، فهو قاضي البلد وكاتب عقودهم ومعاملاتهم ومقسم تركاتهم، أنهى صلاة المغرب، وبعد الصلاة أشار للأخ الذي استأذنه للمحاضرة .. قائلا: أين محاضركم؟ أشار الأخ إليَّ، فقمت واستقبلت الناس وتحدثت بما تيسر، وذلك الفقيه يرقب ويلاحظ، جاء وقت صلاة العشاء، وقدمني إماما، صليت بالناس، وبعد الصلاة مباشرة سألني وهو يبارك ويبدو عليه الاعجاب، من أنت يا بني؟ فقلت اسمي محمد مهدي الحمودي، فأعاد السؤال فأعدت عليه الإجابة، فقال مستوضحا: أبوك صاحب قرية ذي دلوان؟ فقلت له نعم. فأشار بأصبعه استصغار لشأني: مهدي الحمودي، أنتم مزارعون (رعية)، من أين لك هذا؟ فقلت له ذلك فضل الله يهبه من يشاء.

أرأيت أيها الفاضل، كيف ينظر الناس إليك، يبخلون عليك بفضل لا ينقصهم حقا ولا يُفوّت عليهم مصلحة، أرأيت؟ كيف اختارك الله واصطفاك، فحملت نور الهداية وتشرفت براية التوحيد، ثم وهبك علما، به شَرُفت، وبه تُجلُّ وتحترم، بفضل ما تحمل كُتبت الأسفار وتحدث الأخيار، يكفيك أن تعلم:

أن الله أشهد نفسه وملائكته وثلث بأهل العلم على أكبر قضية وأعظم أمر وهو تفرده بالألوهية، فقال ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ آل عمران: ، ألا يكفيك هذا شرفا وفضلاً وجلالاً ونبلا.

ألا تستحضر اختصاص الله لك بالرفعة من بين سائر أهل الإيمان ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ المجادلة، فأهل العلم من جملة أهل الإيمان، ولكن خص بالذكر لشرفه.

أخي المبارك نفى الله مساواتك لغيرك بالعلم فقال في سؤال مفاده الإنكار لمن ظن ذلك ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ الزمر: ٩

ينبري الناس لخدمة إنسان فيغبطه الآخرون، ولكن أرأيت لو انبرى كل الكون ليخدمك أيها العالم والمتعلم، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من سلك طريقا يبتغي فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر. رواه أبو داود والترمذي.

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء

وقدر كل امرئ ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء

ففز بعلم تعش حيا به أبدا ... الناس موتى و أهل العلم أحياء

وليس القصد هو حشد الأدلة وحصرها في فضل العلم والتعلم وجلالة قدر ما تحمّلت أيها المبارك، ألا تجيل ناظريك في من عاصرت من زملاء الدراسة وأقران الزمن الذي ولدت فيه، أين هم؟، ألم يكن منهم من هو أكثر منك ذكاء ونباهة؟ فقد اختارك ليكرمك، وأكرمك ليكلفك، وكلفك ليرفعك.

وفضل العلم فضل مطلق، وفضله لذاته وليس لما أضيف له كما في بعض الفضائل، فهو وصف كمال لله تعالى، ووصف شرف للملائكة والبشر، بل وصف تفاضل بين الحيوان، وإذا نظرت إلى العلم رأيته لذيذا في نفسه مطلوبا لذاته ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها وذريعة إلى القرب من الله تعالى ولا يتوصل إليه إلا به، وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي السعادة الأبدية وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها، ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم فهو إذن أفضل الأعمال وكيف لا وقد تعرف فضيلة الشيء أيضا بشرف ثمرته ، وثمرة العلم القرب من رب العالمين والالتحاق بأفق الملائكة ومقارنة الملأ الأعلى ، هذا في الآخرة وأما في الدنيا فالعز والوقار ونفوذ الحكم على الملوك ولزوم الاحترام في الطباع حتى إن أغبياء الترك وأجلاف العرب يصادفون طباعهم مجبولة على التوقير لشيوخهم لاختصاصهم بمزيد علم مستفاد من التجربة، بل البهيمة بطبعها توقر الإنسان لشعورها بتمييز الإنسان بكمال مجاوز لدرجته.

***

**الوقفة الثانية: بقدر ما أكرمك فقد ألزمك.**

أكرمك بالعلم واختصك به، وطلب منك أداء حقه وشكر فضله، ميزك لتمتاز واقامك لتقوم، أعطاك آلة توظفها في مسارها وتستعملها في محلها.

أقامك في سبب وأعجزك عن أسباب أخرى، وأن ترضى بما أقامك الله فيه وتعمل بقدرات أقدرك الله عليها لهو غاية الرضى بالقدر وغاية الإبداع في إتقان ما ملكك الله من قدرات.

وأنت ترى أهل الدنيا مقيمين في مقامات الراحة والدعة ولذيذ عيش الدنيا بسبب أسباب بذلوها وسعوا في تحقيقها، وربما كانت يسيرة جدا، وأنت تحسن أكثر منها تدبيرا وخبرة، فقمت إلى تلك الأسباب فبذلتها فكانت النتيجة مخفقة والسنبلة فارغة، أليست هي تلك الأسباب التي أقامها أولئك، لقد منعت أنت وأعطي هو.

الله وحده هو الذي أقامك في مقام لو فتح لك غيره لانصرفت عنه، الله يسمعك ويرى سعيك وحالك، ويعلم رغبتك وبذلك، ويطلع على حاجة لك وأمنية تريدها .. لكن الله يجيبك بما شاء لا بما شئت، وفي الوقت الذي يريد وليس في الوقت الذي تريد.

اخي الموفق الكريم .. أقدار الله تعالى وعطاياه لها ظاهر مدرك وباطن مستور .. أخفى عنك ليعلم يقينك بما وعدك، ويكشف إيمانك بتسليمك له، وتعبدك بأسمائه .. العليم .. الحكيم .. القادر .. الشكور .. الغفور.

ألست من يقرأ سورة الكهف في كل جمعة مرة، متعبدا متقربا لله ترجو ثواب قراءتها ونور بركتها .. هل تأملت قصة نبي الله موسى وعبد الله الخضر .. أخفى الله علما عن موسى ليكون درسا لأمم التوحيد والهدى وليكون منطلقا للعمل وقائدا للتسليم لله رب العالمين.

إفساد لسفينة فيه مظنة غرق ركابها .. أمر كبير ومفسدة ظاهرة .. غلام يلعب مع الغلمان تظهر عليه براءة الطفولة وروعة حركاتها .. قوم لا يستحقون الإكرام فهذا طبعهم لم يكرموا فكان مقابلتهم بمثل صنيعهم هو قياس المشاكلة.

وبعد ظهور المستور في أقدار الله سيسلم الجميع بالمصلحة الراجحة عقلا وشرعا، "ارتكاب المفسدة الصغرى لدفع مفسدة كبرى".

أخي الموفق: ليست الأمور بظواهرها وحسب، فكل ما تراه في الكون من حركة وسكون لله فيه قدر مستور وغيب لا يُطلع عليه إلا من شاء.

نعم .. يقينا يحزنك ما ترى من آلام بأمتك .. دماء تسيل .. ديار تخرب .. تسلط وعلو من قبل أعداء الأمة .. وبروز ظاهر لمخالب المنافقين .. تفرق وتناحر في وسط الصلحاء قبل غيرهم.

قد كشف لك القرآن بعضا من أسرار ذلك ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ آل عمران: ١٣٩ – ١٤٢

هيا أعد قراءتها وتبين معانيها .. تلك الأرواح التي أزهقت .. ما كانت لتصل درجات العلى ولا مقام الشهداء لولا ذلك .. لولا البلاء والشدة ما تمايز الصف ولا ظهرت معادن الرجال وانكشفت حقائق القلوب.

***

**الوقفة الثالثة: المال والجاه يصنع في النفوس ما لا يصنعه العوز والخمول.**

دعني أخي الموفق الكريم أذكر لك قصتين من حياة الصحابة أفضل جيل وأتقى وأنقى وأورع .. في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: قدم علينا عبد الرحمن بن عوف وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع وكان كثير المال، فقال سعد: قد علمت الأنصار أني من أكثرها مالا سأقسم مالي بيني وبينك شطرين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فأطلقها حتى إذا حلت تزوجتها. فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك، فلم يرجع يومئذ حتى أفضل شيئا من سمن وأقط، فلم يلبث إلا يسيرا حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه أثر من صفرة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: مهيهم، قال: تزوجت امرأة من الأنصار، فقال: ما سقت إليها؟ قال: وزن نواة من ذهب أو نواة من ذهب. فقال: أولم ولو بشاة.

وخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "قالت الأنصار: أقسم بيننا وبين إخواننا النخيل؟ قال: لا؛ قالوا: أفتكفوننا المؤونة ونشرككم في الثمرة؟ قالوا: سمعنا وأطعنا.

وبعد سنتين من هذا التاريخ حصلت القصة التالية: في مسند الإمام أحمد: عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فشهدت معه بدراً، فالتقى الناس فهزم الله العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأكبت طائفة على المغنم يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض. قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وليس لأحد فيها نصيب. وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق به منا نحن نفينا منها العدو وهزمناهم. وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم: خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به. فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾ الأنفال: ١، فقسمها رسول الله بين المسلمين.

وأخرج أحمد، والبيهقي في سننه عن أبي أمامة قال : سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقسمه رسول الله بين المسلمين عن بواء ، يقول عن سواء.

وخذ أخي الموفق الكريم قصة ثالثة: روى الإمام أحمد: عن عمر بن الخطاب قال في خطبة خطبها في المدينة: وأنه كان من خبرنا حين توفي رسول الله أن عليا والزبير ومن كان معهما تخلفوا في بيت فاطمة بنت رسول الله وتخلف عنها الأنصار بأجمعها في سقيفة بني ساعدة، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقلت له: يا أبا بكر انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار، فانطلقنا نؤمهم حتى لقينا رجلان صالحان، فذكرا لنا الذي صنع القوم فقالا:

أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلت: نريد إخواننا من الأنصار. فقالا: لا عليكم أن لا تقربوهم واقضوا أمركم يا معشر المهاجرين. فقلت: والله لنأتينهم، فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بني ساعدة فإذا هم مجتمعون، وإذا بين ظهرانيهم رجل مزمل فقلت: من هذا؟ قالوا: سعد بن عبادة. فقلت: ماله؟ قالوا: وجع، فلما جلسنا قام خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله وقال: أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط نبينا، وقد دفت دافة منكم تريدون أن تختزلونا من أصلنا، وتحصنونا من الأمر. فلما سكت أردت أن أتكلم، وكنت قد زورت مقالة أعجبتني أردت أن أقولها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحد وهو كان أحكم مني وأوقر والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قالها في بديهته وأفضل حتى سكت.

فقال: أما بعد فما ذكرتم من خير فأنتم أهله، وما تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسبا ودارا، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين أيهما شئتم. وأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة ابن الجراح، فلم أكره مما قال غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك إلى إثم أحب إلي أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، إلا أن تغير نفسي عند الموت. فقال قائل من الأنصار: أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش. فقلت لمالك: ما يعني: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب؟ قال: كأنه يقول: أنا داهيتها.

قال: فكثر اللغط، وارتفعت الأصوات حتى خشينا الاختلاف. فقلت: أبسط يدك يا أبا بكر فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار، ونزونا على سعد بن عبادة فقال قائل منهم: قتلتم سعدا. فقلت: قتل الله سعدا.

قال عمر: أما والله ما وجدنا فيما حضرنا أمرا هو أرفق من مبايعة أبي بكر، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة، فإما نبايعهم على ما لا نرضى، وإما أن نخالفهم فيكون فساد، فمن بايع أميرا عن غير مشورة المسلمين فلا بيعة له، ولا بيعة للذي بايعه.

مرآة نبوية تعكس حقيقة النفوس البشرية، وإن شئت فقل منظار دقيق لكشف جراثيم النفوس البشرية، أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا فتحت عليكم فارس والروم أي قوم أنتم قال عبد الرحمن بن عوف نقول كما أمرنا الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو غير ذلك تتنافسون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون ثم تتباغضون أو نحو ذلك ثم تنطلقون في مساكين المهاجرين فتجعلون بعضهم على رقاب بعض.

ويدرك الفاروق عمر هذه الحقيقة يوم جيء إليه بغنائم فتح فارس وكان فيها سواري كسرى ومنطقته وخفاه، يوم قال : يا سراقة قم فالبس . قال سراقة : فطمعت فيه فقمت فلبست . فقال : أدبر . فأدبرت ، ثم قال : أقبل . فأقبلت ، ثم قال : بخ بخ ، أعرابي من بني مدلج عليه قباء كسرى وسراويله وسيفه ومنطقته وتاجه وخفاه ، رب يوم يا سراقة بن مالك ، لو كان عليك فيه هذا من متاع كسرى وآل كسرى ، كان شرفا لك ولقومك ، انزع . فنزعت ، فقال : اللهم إنك منعت هذا رسولك ونبيك ، وكان أحب إليك مني ، وأكرم عليك مني ، ومنعته أبا بكر ، وكان أحب إليك مني ، وأكرم عليك مني ، وأعطيتنيه ، فأعوذ بك أن تكون أعطيتنيه لتمكر بي . ثم بكى حتى رحمه من كان عنده . ثم قال لعبد الرحمن بن عوف : أقسمت عليك لما بعته ثم قسمته قبل أن تمسي.

والآن أخي المبارك هل أدركت الحقيقة الكامنة في النفوس البشرية، تصاب بداء الطمع والأثرة وتغيرها الأموال، ويفسد الجاه وحبه حبال الوئام والأخوة، وربما فرق الكلمة وشتت الجمع، وقد يزرع العداوة والبغضاء، وقد يصل الأمر أن تسيل الدماء وتستحل الحرمات.

أخي الموفق: أما لاحظت ذلك في أكرم جيل وصنعة يد رسول الله وتربيته، هل يمكن أن يبرأ أحدنا نفسه من ذلك؟ طبعا ستنشد اللسان قائلة: "معاذ الله بل الصحابة أكرم وأجل وأفضل"، وستعترف اللسان مجددا بأمراض النفوس، لكننا لا نريد نشيدا تلهج به الألسن ولا لفظا فارغا لا يقوم له أثر في الواقع والسلوك.

نحتاج إذا إلى معالجات جادة وبرامج مكثفة تعالج النفوس وتصفي القلوب وتنفض الغبار وتزيل الصدأ.

تفرق وتشتت وربما بغض وعداوة .. تسأل كل الأطراف عن أسباب الخلاف .. فلا تكاد تجد سببا جوهريا يقود لكل هذا التفرق والعداء.

أخيرا: هذه أسطر وجدت نفسي منساقا لكتابتها .. ذكريات تحركت أشواقها .. فجوات رأيتها في الوسط الدعوي أردت أن أفتح بابا لمناقشتها ومعالجتها لمن هو أعلم وأقدر مني .. دعونا نعترف ثم نناقش ثم نصحح.

دعونا نربي من جديد لننطلق بقوة أكبر وسرعة أقوى .. دعوة لأهل المهارة والدراية للغوص والانقاذ .. دعني أقوم بدور العاجز عن انقاذ الغريق لكنه رفع صوته ونادى القادرين .. فانبرى أقوام رزقهم الله مهارة وقدرة فانتشلوا ذاك الغريق .. فإذا لم يفعلوا لحقهم اللوم والعتاب وقد يدركهم الضمان.

دعوة لمدارسنا ومعاهدنا وحلقاتنا العلمية والتربوية لوضع منهج تربوي إيماني يزكي القلوب ويصفي النفوس ويوحد الكلمة ويرص الصف ويوحد الجهد.

اعمل بقولي وإن قصرت في عملي ... ينفعك قولي ولا يضررك تقصيري

هذا الكتاب منشور في